لم يكن بامكان المراقب المحايد أن يحكم على دريفوس بالبراءة من تهمة التجسس لحساب المانيا التي وجهها القضاء اليه ، وبالتالي يقفز الى الاستنتاج بأن الموجود في قفص الاتهام هو الشخصية اليهودية التي طالما لحقها الاضطهاد عبر التاريخ . لقد كان دريفوس مظلوما ، الا ان براءته التامة من تهمة الخيانة العظمى لم تظهر الا فيما بعد . اذن فان صهيونية هيرتزل تسبق المحاكمة الشهيرة التي هزت فرنسا .

لقد عقلن هيرتزل صهيونيته عندما أشار الى انها جاءت كرد فعل طبيعي على موجة المعاداة للسامية التي جرفت فرنسا يومذاك ، لكنه لم يشر أبدا الى الحركة المضادة لهذه الموجة ، وهي الحركة التي تزعمتها مجموعة من ابرز رجالات فرنسا ، ضمت جورج كليمنصو وانا تول فرانس واميل زولا ، واستطاعت ان تحصل لدريفوس على التبرئة التامة ورد الاعتبار الكامل . ان ستيوارت يبين بوضوح ان الطموح العارم للوصول الى السلطة واحراز المجد والشهرة ، هو الذي غرس في نفس هيرتزل العقيدة الصهيونية . انه في هذه المرحلة من حياته يربي لحية كثيفة ذات شكل آشوري ، ويبدأ في التبشير لعقيدته ، ويسمع الناس ابنه وهو يسأل امه : ماما ؟ هل علي ان اداوم في المدرسة اذا اصبح بابا ملكا ؟

هل كان هيرتزل سينصرف الى التبشير بالصهيونية لو انه احرز النجاح كمؤلف يا ترى ؟ لقد قضى شبابه كله باحثا عن المجد كأديب ، فألف الروايات والمسرحيات ، لكن النجاح الوحيد الذي حاز عليه كان كصحفي يتمتع بأسلوب شيق ، لا سيما في كتابة المواضيع الخفيفة . ولذا يستشهد ستيوارت بعالم النفس الاميركي (اليهودي) لوينبرغ الذي كتب دراسة تحليلية عنوانها : تيودور هيرتزل — دراسة نفسية تحليلية في الزعامة السياسية الجماهيرية ، وفيها يقول لوينبرغ : « ان هيرتزل الذي أخفق في المسرح حول السياسة الى مسرح ، فأصبح المخرج ومدير المسرح وحجز لنفسه دور البطولة . أما المسرحية فكانت تدور حول انقاذ شعب ... »

وقد حاول المؤلفون الصهيونيون ان يضفوا على بطلهم ملامح الروحانية الدينية ، فكتب احدهم (اندريه شوراكي) عن حاجة هيرتزل للصلاة ، وزيارته للمعبد في باريس، بينما يستشهد ستيوارت بمذكرات هيرتزل التي تبين بأن نظرة هيرتزل الى المصلين في المعبد كانت كنظرة مرشح النيابة لابناء دائرته الانتخابية . ان مذكرات هيرتزل مليئة باشارات الاحتقار والازدراء للشعب الذي يريد ان يتوج نفسه ملكا عليه ، وكأن الكاتب هو آري عريق لا يطيق رؤية الانوف المعقوفة والوجوه الشاحبة . والواقع ان هيرتزل لم يستطع الفكاك ابدا من بيئته وحضارته الجرمانية . ولستيوارت ملاحظة ثاقبة في هذا الشأن ، فانه يستشهد بفقرة من كتابات هيرتزل يقول فيها : عندما يصل اليهود ، الى «بلادهم الجديدة»، سيقفون حاسري الرؤوس ليحيوا رايتهم . والطريف هنا هو ان اليهودي ، كالمسلم ، يغطي رأسه كاشارة احترام ، بينما الذي يعري رأسه احتراما هو المسيحي ! وهكذا نرى ان هيرتزل كان بعيدا كل البعد عن الحضارة اليهودية وتقاليد الشعب الذي يريد انقاذه .

وينسف ستيوارت اساطير اخرى في سياق روايته لحياة هيرتزل . فكتابات المعجبين تستفيض في التحدث عن حنوه على اولاده ، بينما يبين ستيوارت بأنه بالرغم من اشارات هيرتزل المتعددة الى ابنائه في يومياته ، فمن مجموع خمس اشارات الى اعياد ميلادهم ، نجد ثلاثا منها تتضمن خطأ في تعيين أعمارهم ! ثم هناك الاسطورة المتعلقة بحاييم ماكوبي ، احد مشاهير رجال الدين اليهودي بين معاصري هيرتزل . فان ماكوبي قضى حياته كلها يعارض الصهيونية السياسية ويندد بدعوة هيرتزل . ولكننا نجد اسمه اليوم في عداد مؤيدي هيرتزل الاوائل وهناك قاعة في احدى الجامعات الاسرائيلية مكرسة لذكراه !

اما رحلة هيرتزل الى فلسطين ، وقد استغرقت تسعة ايام بالتمام والكمال ، وكانت الزيارة الاولى والاخيرة ، فان يوميات هيرتزل نفسها تقضي على الاسطورة التي حاكها المؤرخون حول حالة النشوة التي انتابته وانتابت صحبه عندما اقتربت السفينة التي تقلهم من « الساحل اليهودي »*. فهو كان يعاني من سوء الصحة ، وقد أتعبه حر فلسطين ، وهذا كله عكر له مزاجه . الا ان الزيارة التاريخية

---

* يذكر ستيوارت القارىء بأن العبريين القدماء لم يسكنوا ابدا الساحل الفلسطيني .